

النخل.. سيد الشجر



يسعد الكثيرون من الصائمين في العالم الإسلامي بأن يبتداوا إفطارهم بشق تمرة، لكن هذا يبدو بعيد المنال في كثير من الأصقاع، أمّا في العالم العربي فالتمر وغيره، إذ ينتج النخل العربي 76% من تمور العالم. وهذا حديث عن النخل وثماره المباركة التي يجمع كثير من علماء التغذية على أنها: غذاء ودواء.

"النخلة أرض عربية" عبارة قالها الشاعر مظفر النواب متنفساً فيها الصداء حين بدأ له غابات النخيل مع أوّل خيوط الصبح بعد مفارزة مضنية في ليل حalk الظلام محفوف بالمخاطر، فإلى أي مدى يمكن اعتبار النخل أرضاً عربية؟ إذا رجعنا إلى الأصول، نجد أنّه من الصعب تحديد الموطن الأوّل للنخيل في العالم. يمكن القول باطمئنان إن وادي الراافدين ومنطقة الخليج ومصر هي من البيئات الأولى لوجود هذه الشجرة المباركة، وما التحديد الذي ادعاه ابن وحشية من أن جزيرة حرقان هي الموطن الأوّل للنخيل إلا تجاوز على العلم، لأنّه لم يورد لنا سندًا واحدًا يجعل هذه الجزيرة بالذات وليس غيرها هي الموطن الأوّل، فقد تكون منطقة المنامة أو شرق السعودية أو منطقة مناطق الإمارات أو عمان، دع عنك بلاد الراافدين أو مصر. وحين يدّعي العالم الإيطالي أدراردو بكارى أن منطقة الخليج هي الموطن الأصلي

للنخيل، فإذاً يبرر ذلك بأنّ "هناك جنساً من النخل لا ينتعش نموه إلا في المناطق شبه الاستوائية حيث تندر الأمطار وتتطلب جذوره وفرة الرطوبة، ويقاوم الملوحة لحد بعيد"، وجميع هذه الصفات تتوافر في منطقة الخليج والمناطق المجاورة لها. أمّا العالم الجيولوجي إدوارد بري، فقد عثر على نماذج مستحقرة من التمر في شرق ولاية تكساس الأمريكية، فحاول البعض التشكيك بهذه الإكتشافات واعتبارها دليلاً قاطعاً على أن أمريكا هي الموطن الأصلي للنخيل. ورغم اختلاف وجهات نظر المؤرخين حول موطنها الأصلي، فالثابت أن بابل التي يمتد تاريخها إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، قد عرفت هذه الشجرة وثمارها من خلال ما خلّفته من آثار. ولم يكن وادي الرافادين الموطن الوحيد لوجود آثار النخيل، فإن مصر القديمة هي الأخرى كانت موطنناً لزراعة النخيل، حيث عُثر على نخلة صغيرة كاملة في إحدى مقابر سقارة حول مومياء من عصر الأسرة الأولى (حوالي 3200 ق.م). وتضمنت شريعة حمورابي عدداً من المواد التي تؤكد على حماية زراعة النخيل، كما تضمنت القصيدة البابلية المعروفة 365 فائدة لهذه الشجرة وثمارها. وقد أدخل البابليون والآشوريون التمر في بعض الوصفات الطبية كعلاج الدمامل والقرح، ووصف ماء التمر مع ماء الورد للمعدة وعسر الهضم مع الحليب، واستعمل مسحوق نوى التمر مع شحم حيواني للرضوض والأورام، وكذلك مسحوق النوى وماء الورد لمداواة العيون.

ومنافع التمر الكثيرة أعطته أهمية كبيرة وجعلته في موضع التقديس، لقد كانت معابد وقصور السومريين والبابليين مزينة بالنخل أو السعف أو بكليهما، وكان للبابليين إله للنخيل على هيئة إمرأة يخرج من كتفيها سعف النخيل كأجنحة الملائكة. وتلقيح النخيل من الطقوس الدينية عند السومريين والبابليين.

شجرة مباركة في السماء والأرض:

لقد أعطت الأديان السماوية قيمة كبيرة للنخيل والتمر، فاليهود يعتبرون التمر من الثمار السبعة المقدسة، والمسيحيون يعتبرون فسيلة النخل رمزاً للمحبة والسلام. أمّا في الإسلام، فالنخلة شجرة مباركة أعزّها الله رسوله الأمين إذ جاء ذكرها في كتاب الله العزيز عشرين مرّة. ورد ذكرها مرّتين في كل من السور التالية: سورة الأنعام (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله)، وفي سورة مريم (فأ جاءها المخاض إلى جذع النخلة) (وزي إليك بعدن النخلة تساقط عليك رطباً جنباً)، وسورة الرحمن (فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام) (فيهما فاكهة ونخل ورمان) وسورة النحل (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب)

(ومن ثمرات النخيل والأعناب تنتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً). كما ذكرت مرّة واحدة في السور التالية: طه (ولأصلبكم في جذوع النخل)، والشعراء (وزروع ونخل طلعها هضيم)، وفي ق (والنخل باسقان لها طلع نضيد)، والقمر (تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقر)، والحاقة (فترى القوم فيها صرعي كأنّهم أعجاز نخل خاوية)، وعبس (فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً)، والبقرة (أيودٌ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب)، والرعد (ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماءٍ واحد)، والإسراء (أو تكون لك جنة من نخيل وأعناب)، ويس (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب).

- عروس الغزل: وكان إهتمام الإسلام بالزراعة عموماً وبالنخل خاصة، قد تمثل بالشروط الواضحة التي أكد عليها النبي (ص) بخصوص بيع وشراء التمر، وفي آداب أكله كذلك. وبعد وفاة النبي (ص) سار الخلفاء والحكام في البلاد الإسلامية على النهج نفسه حتى صارت شجرة النخل سيدة الشجر كما وصفها أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني البصري المتوفى سنة 248 هجرية 862 ميلادية. وفي وصف جامع للتمر، قال ابن قيم الجوزية إنّه: فاكهة وغذاء ودواء وشراب وحلوى. وقد صاغ أمير الشعراء أحمد شوقي هذه المعاني في بعض من أبياته الشعرية: أهذا هو النخل ملك الرياض *** أمير الحقول عروس العزب طعام الفقير وحلوى الغني *** وزاد المسافر والمفترب فيما نخلة الرمل لم تبخلي *** ولا قصرت نخلات الترب لم يكن أحمد شوقي أول الشعراء الذين تغزلوا بالنخلة وأحسنوا في وصفها شجرة وثمرة فهي جمالها قال أبو نواس: كرائم في السماء زهين طولاً *** ففات ثمارها أيدي الجناء قلائق في الرؤوس لها ضروع *** تدر على أكف الحالبات ووصف أحد الشعراء النخلة قائلاً: والنخل حول النهر مثل عرائس *** نصت غدائرها على غدرانـ والطلع من طرب يشق شيئاً به *** متنتشر كالجذلانـ وقال السري الرفاء المتوفى سنة 366 هجرية: فالنخل من باسق فيه وباسقةِ *** يضاحك الطلعُ في قنوانه الرطباً أضحت شماريخه في النحر مُطْلعة *** إما ثريا وإما مـعـصـماً خـمـساً وفي وصف البلح الأحمر وهو في مرحلة البدُّسر قال ابن وكيع: انظر إلى البدُّسرـ قد تبدي *** ولو نهـ قد حـى الشـقيقـاـ كـأنـماـ خـوصـهـ عليهـ زبرجد مثمر عقيقاً أما المعربي فقد شرب من ماء دجلة وزار أشرف الشجر: شربنا ماء دجلة خير ماء *** وزرنا أشرف الشجر النخيلاً وما قالت الشاعرة عاتكة وهبي الخزرجي هذه الأبيات: تباركت يا نخلة الشاطئين *** ويـآيةـ الأـعـصـرـ الـبـاقـيـةـ نـاهـلتـ الـخـلـودـ منـ الـرافـدينـ *** فبوركت مسقيّة ساقية أطلبي يا نخلة الشاطئين *** فؤادي بأفياائد الحانية لسنا هنا في معرض إيراد كل ما قيل من شعر بحق النخيل ولكن الأبيات التي قالها الأمير الأندلسـي عبد الرحمن الداخل جديرة بالذكر لأنّها تمس آلاف القلوب العربية التي ذاقت طعم الإغتراب: تبـدتـ لـنـاـ وـسـطـ الرـصـافـةـ نـخلـةـ ***ـ تـنـاءـتـ بـأـرـضـ الـغـربـ عنـ بـلـدـ النـخلـ فـقلـتـ شبـيهـ بـالـتـغـربـ

